

الجزء السادس

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ
سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا (١٤٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه كثيراً من عيوب المنافقين ومفاسدهم لإقامة الحجة عليهم ،
وحذر المؤمنين من مثل أعمالهم وأخلاقهم كما قال : « وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .
بين هنا حكم الجهر بالسوء من القول وإبداء الخير وإخفائه حتى لا يستدل المؤمنون
بذكر عيوب المنافقين والكافرين في القرآن على استحباب الجهر بالسوء من القول
أو مشروعيته إذا كان حقا على الإطلاق فيفسو ذلك ، وفي هذا من الضرر ما سنده كره .

الإيضاح

(لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) حب الله لشيء هو الرضا به والإثابة عليه ،
والجهر يقابل السر والاختفاء ، والسوء من القول ما يسوء من يقال فيه كذكر عيوبه
ومساويه التي تؤذى كرامته .

والعنى — إن الله لا يحب من عباده أن يجهروا فيما بينهم بذكر العيوب والسيئات
لما في ذلك من المفسد الكثيرة التي أهمها :

(١) أنه مجلبة للعداوة والبغضاء بين من يجهر بالسوء ومن ينسب إليه هذا السوء ،
وقد يصل الأمر إلى هضم الحقوق وسفك الدماء .

(٢) أنه يؤثر في نفوس السامعين تأثيراً ضاراً بهم ، فقد جرت العادة بأن
الناس يقتدى بعضهم ببعض ، فمن رأى إنساناً يسب آخر لضغائن بينه وبينه ،
أو لسكراهته إياه قبله في ذلك ولا سيما إذا كان من الأحداث الذين يغلب عليهم
التقليد أو من طبقة دون طبقة ، إذ عامة الناس يقلدون خواصهم ، فإذا ظهرت
المنكرات في الخاصة لانتلبث أن تصل إلى العامة وتفشو بينهم . ومن تميل نفسه إلى
منكر أو فاحشة يجترى على ارتكابها إذا علم أن له سلفاً وقدوة فيها ، فسماع السوء
كعمل السوء فذاك يؤثر في نفس السامع وهذا يؤثر في نفس الرائي والناظر ،
وأقل هذه الأضرار أنه يضعف في النفس استقباحه واستبشاعه خصوصاً إذا تكرر
السماع أو النظر .

وكثير من الناس يجهل مبلغ تأثير الكلام في القلوب فلا يترهون ألسنتهم
عن السوء من القول ولا أسماعهم عن الإصغاء إليه .

والخلاصة — إن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول ولا الإسرار به إذ هو
قد نهى عن التجوى بالإيم والعدوان ومعصية الرسول ولكنه خص الجهر هنا بالذكر
لمناسبة بيان مفسد الكفار والمتناقضين في هذا السياق .

والجهر بالسوء أشد ضرارا من الإسرار به لأن ضرره وفساده يفسو في جمهرة الناس ويم سائر الطبقات .

(إلا من ظلم) أى لكن من ظلمه ظالم فجهر بالشكوى من ظلمه شارحا لظلامته لحاكم أو غيره ممن ترجى نجاته ومساعدته على إزالة هذا الظلم فلا حرج عليه في ذلك ، فإن الله لا يحب لعباده أن يسكتوا على الظلم ولا أن يخضعوا للظلم ، بل يجب لهم العزة والإباء .

فهاهنا تعارضت مفسدتان مفسدة الجهر بالشكوى من الظلم بقول السوء ومفسدة السكوت على الظلم وهو مدعاة فشوه والتماذى فيه ، وذلك مما يؤدى إلى هلاك الأمم وخراب العمران ، وكانت ثانيتهما أخف الضررين فأجيزت للضرورة التي تقدر بقدرها ، وإذا فلا يجوز للمظلوم أن يتماذى في الجهر بالسوء بما لا يدخل له في دفع الظلم وفي الحديث « إن لصاحب الحق مقالا » رواه الإمام أحمد .

(وكان الله سميعا عليما) فلا يفوته قول من أقوال من يجهر بالسوء ولا يعزب عن علمه البواعث التي أدت إليه ، إذ لا يخفى عليه شيء من أقوال العباد ولا من أفعالهم ونياتهم فيها ، فمن جهر بالسوء الذي لا يحبه الله لعباده لضرره ومفسدته لظلم وقع عليه فالله لا يؤاخذ به ، بل ربما أثابه على ذلك لإراحة الناس من شر فاعله فإن الظالم إن لم يؤاخذ على ظلمه يزدد فيه ضراوة وإصرارا .

(إن تبدوا خيرا أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا) أى إن فاعل الخير سرا وجهرا والعافين عن سيئهم يجزيهم ربهم من جنس ما عملوا فيعفو عن سيئاتهم ويحزل مثوبتهم ، والله من شأنه العفو وهو القدير الذي لا يعجزه الثواب الكثير على العمل القليل .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا

بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)

المعنى الجملى

بين الله تعالى أن للايمان ركنين يبنى عليهما ماعداهما ، ولا يقبل الايمان بدونهما
وهما الايمان بالله وبجميع رسله بدون تفرقة بين رسول وآخر .

الإيضاح

(إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون
نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك
هم الكافرون حقا) ليس المراد أنهم يصرحون بالكفر بل هو ما تقتضيه آراؤهم
ومذاهبهم ، وقوله : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بيان لتفريقهم بين الله ورسله .

واختلاصة — إن الكافرين بالرسل فريقان فريق لا يؤمن بأحد منهم
لإنكارهم النبوات وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند
أنفسهم لا من عند الله ، وأكثر الملحدين في هذا العصر من ذلك الفريق . وفريق
آخر يؤمن ببعض الرسل دون بعض كقول اليهود نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد
فهما ليسا برسولين ، وقول النصارى نؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد والفريقان
كافرون مستحقون للعذاب ولا عبرة بما يدعونه إيمانا .

(وأعدنا للكافرين عذابا مهينا) أى وأعدنا لكل كافر سواء أكان منهم

أم من غيرهم عذابا فيه ذل وإهانة لهم جزاء كفرهم الذي ظنوا فيه العزة والكرامة .
 ذاك أن من يؤمن بالله ولا يؤمن بوحيه إلى رسله لا يكون إيمانه صحيحا
 ولا يهتدى إلى ما يجب له من الشكر ولا يعرف كيف يعبده على الوجه الذي يرضيه ،
 ومن ثم ترى أمثال هؤلاء ماديين لانهمهم الاشهواتهم كما أن من يؤمنون ببعض الرسل
 ويكفرون ببعض كأهل الكتاب لا يمتدّ بقولهم لأن الإيمان بالرسالة على الوجه الحق
 إنما يكون بفهمها وفهم صفات الرسل ووظائفهم وتأثير هدايتهم .
 ومن فهم هذا حق الفهم علم أن صفات الرسل قد ظهرت بأكملها في محمد صلى
 الله عليه وسلم فهو قد جاء بكتاب حوى مالم يحوه كتاب آخر مع أنه نشأ بين قوم
 أميين ، ونقل كتابه وأصول دينه بالتواتر القطعي والأسانيد المتصلة دون غيره
 من الكتب .

وبعد أن ذكر حال الفريقين السالفي المذكور ذكر حال فريق ثالث فقال :
 (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم)
 أي والذين آمنوا بالله وجميع الرسل وعملوا بشريمة آخرهم علما منهم بأن جميعهم مرسل
 من عند الله ، وما مثلهم إلا مثل ولاية يرسلهم السلطان إلى البلاد ومثل الكتب
 التي جاءت بها مثل القوانين التي يصدر السلطان مراسيم للعمل بها فكل وال منهم
 إنما ينفذ أوامر السلطان وكل قانون يعمل به لأنه منه وكل قانون جديد ينسخ ما قبله
 ويمنع العمل به . وأولئك يؤتيهم الله أجورهم على حسب حالهم في العمل ، لأنهم
 وقد صح إيمانهم بالله ورسله يهديهم ربهم إلى العمل الصالح إذ هو الأثر اللازم لذلك
 الإيمان الصحيح .

ولم يقل في هؤلاء إنهم هم المؤمنون حقا كما قال في أولئك إنهم هم الكافرون
 حقا لثلاث يدور بخلد أحد أن كمال الإيمان يوجد بدون العمل الصالح فيفتقر بذلك ويتروك
 للعمل النافع وهذا مما لا يتلاءم مع نصوص الدين ، فلقد وصف الله المؤمنين حقا بقوله :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ »

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان الله غفورا لهفوات من صح إيمانه ولم يشرك به به أحدا ، ولم يفرق بين أحد من رسله ، رحيما به يعامله بالإحسان ويضعف حسناته ويزيد على ما وعد تفضلا منه ورحمة .

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا (١٥٩)

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى في سابق الآيات حال الذين يكفرون بالله ورسوله ويفرقون
بين الله ورسوله فيقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض وهم أهل الكتاب ، بين في هذه
الآيات بعض حوادث لليهود تدل على شديد تعنتهم وجهلهم بحقيقة الدين .

الإيضاح

(يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء) فقد قالوا له إن موسى
عليه السلام جاء بالأنواح من عند الله فأتينا بالأنواح من عنده تكون بخط سماوى يشهد
أنك رسول الله إلينا .

أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : إن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم
لن نباعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله يكون فيه (من الله
تعالى إلى فلان إنك رسول الله وإلى فلان إنك رسول الله ، وهكذا ذكروا أسماء
معينة من أبحارهم وما مقصدهم من ذلك إلا التعنت والتحكيم لا طلب الحجة
لأجل الاقتناع) وقال الحسن لو سألوه ذلك استرشادا لأعطاهم ما سألوا .

(فقد سألو موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) جهرة أى عيانا ننظر
إليه ونشاهده أى لا تعجب أيها الرسول من سؤالهم وتستنكره فقد سألو موسى أكبر
من ذلك وكل من السؤالين يدل على جهل أو عناد .

ذاك أن سؤال الرؤية جهرة دليل على الجهل بالله إذ هم ظنوا أن الله جسم محدود
بدركه الأبصار ؛ وأما سؤال إنزال الكتاب فهو دليل إما على العناد لأنهم اقترحوا

ما اقترحوا تعجيزا ومراوغة وإما على الجهل بمعنى النبوة والرسالة مع ما ظهر فيهم من أنبياء ، إذ هم لا يميزون بين الآيات الصحيحة التي يؤيد الله بها رسله وبين الشعوذة وحيل السحرة المخالفة للعادة ، وكتبهم قد بينت لهم أنه يقوم فيهم أنبياء كذبة وأن النبي يعرف بدعوته إلى التوحيد والحق لا بمجرد أعجوبة يعملها كما نصت على ذلك التوراة في سفر تثنية الاشتراع وغيره .

وأيا ما كان فلا فائدة في إجابتهم إلى ما طلبوا كما قال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

ونسب سؤال موسى إليهم والذين سألوا إنما هم سلفهم لأن الخلف والسلف سواسية في الأخلاق والصفات ، فالأبناء يرثون الآباء ولا سيما اليهود الذين يأبون مصاهرة الغرباء ، ولأن سنة القرآن قد جرت على أن الأمة تعد كالشخص الواحد في اتباع خلفها لسلفها فينسب إلى المتأخر ما فعله المتقدم كما سبق هذا في سورة البقرة في مخاطبة اليهود وغيرهم .

(فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) الصواعق نيران جوية تنشأ من اتحاد الكهرباء الموجبة بالكهرباء السالبة ، وقوله بظلمهم أى بسبب ظلمهم أى إن الله تعالى عاقبهم على جهلهم بإنزال الصاعقة عليهم عذابا لهم ، إذ شبهوا الخالق بالخلق ورفعوا أنفسهم فوق أقدارها كما قال تعالى « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » .

(ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك) تقدم هذا في سورة البقرة أى وبعد أن جاءتهم المعجزات على يد موسى عليه السلام من قلب العصا حية واليد بيضاء وقلق البحر وغيرها ، اتخذوا العجل إلها وعبدوه ، فعفونا عن ذلك الذنب حين تابوا ، فتوبوا أتم مثلهم حتى نعفو عنكم مثلهم .

(وآتينا موسى سلطانا مبينا) السلطان هنا بمعنى السلطة أى إننا أعطينا سلطة ظاهرة فأخضعناهم له على تمردهم وعنادهم حتى في قتل أنفسهم ، وفي هذا إشارة للنبي

صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندون فإنك ستغلب عليهم
آخرا وتقهروهم .

ثم حكى الله عنهم سائر جهالاتهم وإصرارهم على أباطيلهم وقد تقدم بعضها
فى سورة البقرة فقال :

(ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) الطور الجبل المعروف رفع فوقهم كأنه ظلة
وقد كانوا فى واديه ، وقوله بميثاقهم أى بسبب ميثاقهم أن يأخذوا ما أنزل إليهم بقوة
ويعملوا به مخلصين ثم امتنعوا من العمل بما جاء به فرفع عليهم الجبل فخافوا وقبلوا
العمل به .

(وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا) الباب هو باب المدينة وهى بيت المقدس وقيل
أريحا ، وقوله سجدا أى خاضعى الرعوس مائلى الأعناق ذلة وانكسارا لعظمته أى وقلنا
لهم على لسان يوشع عليه السلام ادخلوا باب هذه القرية بذلة وانكسار .

(وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت) والاعتداء تجاوز الحد ، والاعتداء فى السبت
هو اصطيد الحيتان فيه أى وقلنا لهم على لسان داود عليه السلام لا تتجاوزوا حدود الله
فيه بالعمل الديبوى ، وقد خالفوا فى السبت وفى دخول الباب .

(وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) الميثاق الغليظ العهد المؤكد أى وأخذنا منهم
عهدا مؤكدا ليأخذن التوراة بقوة وليقيمن حدود الله ولا يعتدونها ، ويتبع ذلك
البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام وهو موجود إلى الآن فى الفصل التاسع والعشرين
وما بعده من سفر تثنية الاشرع وهو آخر التوراة التى بأيديهم .

(فيما تقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق) أى فسبب
نقض أهل الكتاب للميثاق الذى واثقهم الله به فأحلوا ما حرمه وحرموا ما أحله
وكفرهم بآيات الله وحججه الدالة على صدق أنبيائه وقتل الأنبياء الذين أرسلوا
لهدایتهم كزكريا ويحيى عليهما السلام .

(وقولهم قلوبنا غلف) جمع أغلف وهو ما عليه غلاف . أى لا ينفذ إليها شيء مما جاء به الرسول ولا يؤثر فيها وهذا كقوله حكاية عن المشركين « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » وغير ذلك من سيئاتهم التي سنذكر بعد - فعلنا بهم ما فعلنا من لعن إلى غضب إلى ضرب الذلة والمسكنة وإزالة الملك والاستقلال ، لأن هذه الذنوب فرقت شملهم وذهبت بقوتهم وأفسدت أخلاقهم إلى غير ذلك من أنواع البلاء التي سببها الكفر والعصيان .

(بل طبع الله عليها بكفرهم) طبع الله عليها جعلها كالسكة المطبوعة في قساوتها وجعلها بوضع خاص لا تقبل غيره أى ليس ما وصفوا به قلوبهم هو الحق الواقع ، بل لأن الله حتم عليها بسبب كفرهم الكسبي وماله من الأثر القبيح في أعمالهم وأخلاقهم ، فهم باستمرارهم على ذلك الكفر لا ينظرون في شيء آخر نظر استدلال واعتبار ، مع أنه من الأمور التي يصل إليها اختيارهم ، ولكنهم لا يختارون إلا ما ألفوا وتعودوا .

(فلا يؤمنون إلا قليلا) أى إلا قليلا من الإيمان لا يعتد به لأنه تفرق بين الله ورسوله ، فالكفر ببعضهم كالكفر بجمعهم وهم قد كفروا بعبسى ومحمد عليهما السلام .

(وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) المراد بالكفر هنا الكفر بعبسى عليه السلام بدليل ما بعده ، وبالكفر الذى قبله الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم بقرينة قوله : وقالوا قلوبنا غلف ، والبهتان الكذب الذى يبهت من يقال فيه أى يدهشه ويحيره لبعده وغرابته ، والمراد به هنا رميها بالفاحشة .

والعنى — أى وطبع الله عليها بكفرهم بعبسى وأمه ورميهم إياها بالكذب العظيم وأى بهتان تبهت به العذراء التمية أعظم من هذا ؟

والخلاصة — إن هذا الكفر والبهتان من أسباب ما حل بهم من غضب الله .

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عبسى بن مريم رسول الله) أى وبسبب قولهم هذا

القول المؤذن بالجرأة على الباطل والاستهزاء بآيات الله .
 وذكره بوصف الرسالة تهكما واستهزاء بدعوته بناء على أنه إنما ادعى النبوة
 والرسالة فيهم لا الألوهية ، كما ادعت النصراني إذ جاء في رواية إنجيل يوحنا (وهذه
 هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) .
 (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أي والحال أنهم ما قتلوه كما ادعوا
 وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس ولكن وقع لهم الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى
 وهم إنما صلبوا غيره ومثل هذا الشبه يحدث كثيرا في كل زمان وتحكى عنه نوادر
 وحوادث غاية في الغرابة لكنها قد وقعت فعلا .

فقد ذكر بعض المؤلفين في الطب الشرعي من الإنكليز حادثة وقعت سنة ١٥٣٩
 في فرنسا است حضر فيها ١٥٠ شخصا لمعرفة شخص يدعى (مارتين جير) حزم
 أربعون منهم بأنه هو هو وقال خمسون إنه غيره والباقون ترددوا ولم يمكنهم أن يبدو
 رأيا ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير والتخدع به هؤلاء
 اليهود المبتنون وعاش مع زوجته مارتين محوطا بأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات
 وكلهم مصدق أنه مارتين ، ولما حكمت المحكمة عليه بظهور كذبه بالدلائل القاطعة
 استأنف الحكم في محكمة أخرى فأحضر ثلاثون شاهدا أقسم عشرة منهم بأنه
 هو مارتين ، وقال سبعة إنه غيره وتردد الباقيون على أن هذه الحادثة من خوارق العادات
 التي أيد الله بها نبيه عيسى بن مريم وأنقذه من أعدائه فألقى شبهه على غيره وغير
 شكله فخرج من بينهم وهم لا يشعرون ، وفي أناجيلهم وكتبهم نصوص متفرقة تؤيد هذا
 الوجه ؛ وإذا قال قائل : وإذا كان المسيح قد نجا من أعدائه فأين ذهب ؟ والجواب
 أنا إذا قلنا إنه رفع بروحه وجسده إلى السماء فلا ترد هذه الشبهة ، وإذا قلنا إن الله
 توفاه في الدنيا ثم رفعه إليه كما رفع إدريس عليهما السلام فلا غرابة في ذلك ، فإن أخاه
 موسى عليه السلام قد انفرد عن قومه في مكان لم يعرفه أحد منهم ، وكانوا أوفاء عدة
 خاضعين لأمره ونبيه فكيف يستغرب أن يفر عيسى عليه السلام من قوم هم أعداء

له لا ولى له فيهم ولا نصير إلا أفراد من الضعفاء قد انفضوا من حوله وقت الشدة ،
وقد أنكره أمثلهم بطرس الحوارى ثلاث مرات .

(وإن الذين اختلفوا فيه لئى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) قال
فى لسان العرب : الشك ضد اليقين ، فالشك فى صلب المسيح هو التردد فيه أهو
المصلوب كان أم غيره ؟

والمعنى — وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب فى شك من
حقيقة أمره وفى تردد إذ ليس لهم به من علم قطعى الثبوت وإنما هم يتبعون الظن
والقرائن التى ترجح بعض الآراء على بعض ، وقد جاء فى بعض الأناجيل التى يعولون
عليها أنه قال لتلاميذه (كلكم تشكون فى هذه الليلة) أى الليلة التى يطلب فيها
القتل (إنجيل متى من ٢٦ — ٣١ ومرقس من ١٤ — ٢٧) .

وإذا كانت أناجيلهم تنطق بأنه أخبر تلاميذه وعرف الناس بأنهم سيشكون
فيه فى ذلك الوقت ، وخبره صادق قطعا ، فهل من العجيب اشتباه غيرهم وشك من
دونهم فى أمره .

(وما قتلوه يقينا) أى وما قتلوا عيسى بن مريم وهم متيقنون أنه هو بعينه
إذ هم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة والأناجيل التى يعول عليها صريحة فى أن
الذى أسلمه إلى الجند هو يهوذا الاسخريوطى وقد جعل لهم علامة أن من قبله يكون
هو المسيح فلما قبله قبضوا عليه ، وإنجيل برنابا يصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا
الاسخريوطى نفسه ظنا أنه هو المسيح لأنه أتى عليه شبهه ، ومن هذا تعلم أن الجند
ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية .

والخلاصة — إن روايات المسلمين جميعها متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا
من أعدائه ومريدى قتله فقتلوا آخر ظنا منهم أنه هو .

(بل رفعه الله إليه) هذه الآية كآية آل عمران « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلَافُ إِلَىٰ وَطَنِكَ وَإِنِّي مُصَوِّبُكَ فِيهِ » وقد روى عن ابن عباس أنه

فسر التوفى بالأماتة ، وعن ابن جريج تفسيره بالأخذ والقبض والمراد منه ومن الرفع إنقاذهم من الذين كفروا بعناية من الله بعد أن اصطفاه إليه وقربه .

وقال ابن جرير نقلا عن ابن جريج فرفعه إياه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا أى فليس المراد الرفع إلى السماء بالروح والجسد ولا بالروح فقط ، وعن تفسير ابن عباس فمعنى الرفع رفع الروح ولكن المشهور بين جمهرة المفسرين وغيرهم أن الله تعالى رفعه بروحه وجسده إلى السماء بدليل حديث المراح إذ أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه هو وابن خالته يحيى فى السماء الثانية ، وأنت ترى أنه لا دليل لهم فى ذلك إذ لو دل هذا على ما يقولون لدل على رفع يحيى وسائر من رآهم من الأنبياء فى سائر السموات ولا قائل بذلك .

وقال الرازى — المعنى رافك إلى محل كرامتى ، وجعله رفعا للتفخيم والتعظيم كقوله حكاية عن إبراهيم « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي » وهو إنما ذهب من العراق إلى الشام ، والمراد رفعه إلى مكان لا يملك الحكم فيه عليه إلا الله اهـ .

(وكان الله عزيزا حكيما) أى إن الله عزيز يغلب ولا يغلب ، وبهذه العزة أتخذ عبده ورسوله من اليهود الماكرين وحكام الروم الظالمين وبحكته جازى كل عامل بعمله ، ومن ثم أحل باليهود ما أحل بهم من الذلة والمسكنة والتشريد فى الأرض وسيوفهم جزاءهم يوم القيامة « يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته) أى إن كل أحد من أهل الكتاب عند ما يدركه الموت يتكشف له الحق فى أمر عيسى وسواه من أمور الدين فيؤمن بعيسى إيمانا حقا لازيغ فيه ولا ضلال ، فاليهودى يعلم أنه رسول صادق فى رسالته ليس بالكذاب ، والنصرانى يعلم أنه عبد الله ورسوله وليس بإله وليس هو ابن لله وفائدة إخبارهم بذلك — أنه لا ينفعهم حينئذ فعلهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه مع عدم الجدوى والفائدة .

(ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) أى ويوم القيامة يشهد عيسى عليهم بما تظهر به حقيقة حاله معهم كما حكى الله عنه من قوله: «مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ» فهو يشهد للمؤمنين منهم بالإيمان حال التكليف والاختيار وعلى الكافر بالكفر إذ هو مرسل إليهم وكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) وقد ورد في الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة، فيبشرون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته، روى البخارى عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، وإن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب الله وعقوبته» وروى ابن مردويه عن ابن عباس «ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار».

وهذا يؤيد ما روى عن ابن عباس فى تفسير الآية من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح مع الإنكار الشديد والتقيح.

(فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ هَمُّوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (١٦١) لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا) (١٦٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فضأح اليهود وقبيح أعمالهم ، ذكر هنا تشديده عليهم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبتحريم طيبات كانت محللة لهم ، وأما فى الآخرة فبإيابه الله بقوله (وأعدنا للكافرين منهم عذابا أليما) .

الايضاح

(فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) أى فبسبب ظلمهم استحقوا تحريم طيبات كانت محللة لهم ولأن قبلهم عقوبة وتربية لهم ، لعلهم يرجعون عن ظلمهم ، وكانوا كما ارتكبوا معصية يحرم عليهم نوع من الطيبات وهم مع ذلك كانوا يفترون على الله الكذب ، ويقولون لسنا بأول من حرمت عليه ، بل كانت محرمة على نوح وإبراهيم فكذبهم الله فى مواضع كثيرة كقوله : « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ » .

أما الطيبات التى حرمها عليهم فهى ما بيّن فى قوله عز اسمه « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ » الآية . وقد أهتمها الله هنا لأن الغرض من السياق العبرة بكونها عقوبة لا بيانها فى نفسها ، كما أهتم الظلم الذى كان سببا فى العقوبة ليعلم أن أى نوع منه يكون سببا للعقاب فى الدنيا قبل الآخرة .

والعقاب إما دنيوى كالتكاليف الشاقة زمن التشريع ، والجزاء الوارد فى الكتب على الجرائم كالحد والتعزير وما اقتضته السنن التى سنّها الله فى نظم الاجتماع من كون الظلم سببا لضعف الأمم وفساد عمرانها واستيلاء الأمم الأخرى عليها ، وإما أخرى وهو ما بينه فى الكتاب الكريم من العذاب فى النار .

(ويصدم عن سبيل الله كثيرا) الصد والصدود المنع وهو يشمل صدم أنفسهم عن سبيل الله بما كانوا يعصون به موسى ويعاندونه مرارا ، وصدم الناس عن سبيل الله بسوء القدوة أو بالأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، وهو من البيان والتفصيل للظلم بعد إجماله وإبهامه ، وهو أوقع فى النفس وأبلغ فى الموعظة .

(وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) أى وبسبب أخذهم الربا وقد نهوا عنه على السنة أنبيائهم ، والتوراة التى بين أيديهم إنما تصرح بتحريم أخذهم الربا من شعبهم ومن إختوتهم دون الأجانب فقد جاء فى سفر الخروج (إن أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى ، لاتضعوا عليه ربا) وفى سفر تثنية الاشتراع (لا تقرض أخاك ربا ، ربا فضة أو ربا شئ ما مما يقرض ربا ، الأجنبي تقرض ربا ، ولكن لأخيك لا تقرض ربا) وهذه عبارة التوراة التى كتبت بعد السبي ، وثبت تحريفها بالشواهد الكثيرة ، أما النسخة التى كتبها موسى فقد قعدت باتفاق اليهود والنصارى .

و بعض أنبيائهم قد نهوا عن الربا إطلاقا فلم يقيدوه بشعب إسرائيل كقول داود فى المزمور الخامس عشر : فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة من البرىء ، وقول سليمان فى سفر الأمثال (المسكثر ماله بالربا والمرابحة فلن يرحم الفقراء بجمعه) .

(وأكلهم أموال الناس بالباطل) بالرشوة والحيانة ونحوها مما أخذ فيه المال بلا مقابل يُعتد به ، ونحو الآية قوله تعالى : « سَمَاعُونَ لِكَذِبِ كَاثِلُونَ لِّلسَّحْتِ » والسحت : الكسب الحرام فقد كانوا يأخذون أثمان الكتب التى يكتبونها بأيديهم ثم يقولون هى من عند الله .

وبعد أن ذكر وجوه الذنوب التى اقترفوها والجرائم التى ارتكبوها بين جزاءهم عليها فى الآخرة فقال :

(وأعدنا للكافرين منهم عذابا أليما) أى هيأنا وأعدنا للذين كفروا منهم برسل الله عذابا مؤلما فى نار جهنم خالدين فيها أبدا .

وبعد أن بين فى هذا السياق سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم وأطلق القول فى ذلك ، وكان هذا مما يوم أنه شامل لكل أفرادهم جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم فقال :

(لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل

من قبلك) أى لكن أهل العلم الصحيح بالدين منهم المستبصرون فيه غير التابعين للظن الذين لا يشتركون به ثمنا قليلا من المال والجاه ، والمؤمنون من أمتك إيمان إذعان لا إيمان عصبية وجدل ، يؤمنون بما أنزل إليك من الينيات والهدى وما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل ، ولا يفرقون بين الله ورسله جهوى ولا عصبية .

روى ابن إسحق والبيهقي فى الدلائل عن ابن عباس أن الآية نزلت فى عبد الله ابن سلام وأسيد بن سعية وثعلبة بن سانية حين فارقوا يهود وأسلموا .

(المقيمين الصلاة) أى وأخص منهم المقيمين الصلاة الذين يؤدونها على وجه الكمال ، فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ فى الإيمان ، إذ إقامتها بتعديل أركانها علامة كمال الإيمان واطمئنان النفس به .

(المؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر) أى والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مثل المقيمين الصلاة فى استحقاق المدح بالتبع ، إذ إقامتها تستدعى إيتاء الزكاة فإن الذى يقيمها على الوجه الذى طلبه الدين لا يمنع الزكاة ، إذ هى مما تركى النفس وتولى الهمة وتهون على النفس للمال قال تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ » الآية .

(أولئك سنوتهم أجرا عظيما) أى هؤلاء الذين وصفوا بما ذكر كله سنعتهم أجرا عظيما لا يدرك وصفه إلا علام الغيوب .

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)

المعنى الجملى

لا يزال الحديث مع أهل الكتاب فإنه ذكر عنهم أولاً أنهم يفرقون بين الله ورسله فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ثم انتقل إلى ذكر شيء من عنادهم وإعنتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وطلبهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء وبين أنه لا غرابة في ذلك فقد شاغبوا موسى من قبله وسألوه ما هو أكبر من ذلك، ثم ذكر كفرهم بعبسى عليه السلام وبهتهم أمه ومحاولتهم قتله وصلابه، وفي كل هذا دليل على تأصل العناد فيهم، ولولا ذلك لما شاغبوك، فإن الدليل على نبوتك أوضح مما يدعون الإيمان بمثله من قبلك — وهنا ختم الكلام في محاجتهم ببيان أن الوحي جنس واحد، ولو كان إيمانهم بالرسل السابقين صحيحاً لما كفروا بحمد صلى الله عليه وسلم.

الإيضاح

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الوحي لغة الإيماء والإشارة كما قال تعالى: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» والإلهام الذى يقع فى النفس كما قال: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ» وما يكون غريزة دائمة كما قال: «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ» والإعلام فى خفاء بأن تعلم إنساناً بأمر تحفيه على غيره كما قال: «شَيْطَانِ الْإِنْسَانِ الْإِنْسَانُ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ».

ووحى الله إلى أنبيائه هو عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ويفرق

(ورسلا لم نقصهم عليك) كالذين أرسلوا إلى الأمم الجبول تاريخها عند قومك وعند أهل الكتاب المجاورين لبلادك كالصين واليابان والهند وأوربا وأمرثا . وإنما لم يقص الله علينا خبرهم لأن القصد من القصص العبرة والتبشير والذكري والاحتجاج على نبوته صلى الله عليه وسلم كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » وقوله : « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » وكل هذا يثبت بذكر من قصصهم الله علينا من الرسل ، وعلينا أن نعلم أن الله أرسل رسلا في كل الأمم فكانت رحمته بهم عامة لا مختصة بشعب معين كما يزعم أهل الكتاب ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقوله : « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » وهذه حقيقة دل عليها الدين السماوي ولم يكن يعلمها أهل الكتاب الذين يزعمون أن القرآن مقتبس من كتبهم ، وكم فيه من حقائق جلاها للناظرين بحمिल بيانه واهتدى العلم الصحيح بعد قرون خلت إلى معرفتها ، وما كان العقل وحده يكشف عنها لولا أن هدى إليها الكتاب الكريم .

(وكلم الله موسى تكليما) خاصا له ميزه عن غيره من ضروب الوحي العام لأولئك النبيين وليس لنا أن نخوض في معرفة حقيقته لأننا لم نكن من أهله ، فنحن لانعرف حقيقة كلام بعضنا بعضا ، وكيف تحمل ذرات الهواء الأصوات إلى الأذان فضلا عن أن تعرف حقيقة كلام الباري .

والوحي إلى الأنبياء يسمى تكليما والتكليم لهم يسمى وحيا كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ إِلًّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه ما يشاء إنه عليّ حكيم » .

والحكمة في الحجاب الاستعداد بالتوجه إلى شيء واحد تتحد فيه هموم النفس وأهواؤها المتفرقة كما كان شأن موسى إذ رأى النار في الشجرة .

والرسول الذي يرسله الله فيوحي بإذنه ما يشاء هو ملك الوحي المبرر عنه بالروح الأمين .

(رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)
 أى أرسلنا رسلا قد قصصنا بعضهم عليك ولم نقصص بعضا آخر ليكونوا مبشرين
 من آمن وعمل صالحا بالثواب العظيم ، وينذروا من كفر وأجرم بالعذاب الأليم ،
 إذ لو لم يرسلهم لكان للناس أن يحتجوا إذا هم أجزموا أو كفروا بأنهم ما فعلوا
 ذلك إلا لجهلهم ما يجب من الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى (وَلَوْ أَنَّا
 أَهْنَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
 آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) وقال (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) .

والخلاصة - إن من حكمة إرسال الرسل قطع حجة الناس واعتذارهم بالجهل عند
 ما يحاسبهم الله ويقضى بعقابهم ، فلولا إرسالهم لكان لهم أن يحتجوا في الآخرة على
 عذابهم فيها وعلى عذاب الدنيا الذي كان قد أصابهم بظلمهم .

والدين وضع إلهي لا يستقل العقل بالوصول إليه ولا يعرف إلا بالوحي وهو
 موافق لسنن الفطرة في تركية النفوس وإعدادها للحياة الأبدية في عالم القدس
 ويترتب على العمل به أو تركه جزاء حده الله في الدنيا والآخرة ولن يكون هذا
 الجزاء إلا لمن بلغته الدعوة على الوجه الصحيح .

(وكان الله عزيزا حكيمًا) أى وكان الله عزيزا لا يغالب في أمر يريده ، ومن
 عزته ألا يجاب المتعنت إلى مطلوبه ، حكيمًا في جميع أفعاله ، وحكمته تقضى هذا
 الامتناع ، لأنه يعلم أنه لو فعل ذلك لأصروا على لجأهم كما فعلوا مع موسى بعد أن
 جاءهم بما طلبوا .

(لكن الله يشهد بما أنزل إليك) هذا استدراك على ما علم من السياق من
 إنكارهم نبوته صلى الله عليه وسلم وعدم شهادتهم بها وهى واضحة عندهم في مرتبة
 المشهود به ، لكنهم استبدلوا المباهة والمكابرة بالشهادة والإيمان ، فسألوه أن

ينزل عليهم كتابا من السماء يثبت دعواه ، ويكون شاهدا له ، فكأنه تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : إنهم مع وضوح نبوتك لا يشهدون بما أنزل إليك ، لكن الله يشهد به .

(أنزله بعلمه) أى فإنه أنزله بعلمه الخاص الذى لم تكن تعلمه أنت ولا قومك بتأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان ، وبما فيه من العلوم الإلهية والأدبية والسياسية والاجتماعية ومن علوم الأنبياء والرسل والأمم ، وبما له من السلطان على الأرواح بهدأيته ، وبما فيه من أنباء الغيب عن الماضى والحاضر والمستقبل وهو بهذه المزايا مثبت لشهادة الله به وأنه وحى من عنده .

والخلاصة - كأن الله تعالى يقول لنبيه إن جحود هؤلاء اليهود وعدم شهادتهم لك لا يضرك بشئ فאלله يشهد بما أنزل إليك وأنت على يقين من ذلك الوحى ، وقد أيد الله شهادته لك بما أودعه فى هذا القرآن فكان بذلك مثبتا لكونه أنزل عليك من ربك ، كما أيده بتصديق ما أنزله فيه من الوعد بالفلاح والنصر والوعيد لمن عاداك بالخذلان والخسران .

(والملائكة يشهدون) أى والملائكة يشهدون بذلك أيضا ، لأن الذى نزل به إليك هو الروح الأمين وهو منهم كما يؤيدك بجند منهم يشبثونك ويشبثون المؤمنين فى القتال كما فى غزوة بدر قال تعالى « إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْى مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ » .

(وكفى بالله شهيدا) على ما شهد به لك حيث نصب الدليل وأوضح السبيل فشهادته أصدق وقوله الحق « قُلْ أَى شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنِ لِأَنَّذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ

وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)

المعنى الجملى

بعد أن أوضح سبحانه في الآيات السالفة الحججة ، وأزال ما كان لليهود من شبهة ، وأثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بشهادة الله بما أنزل عليه مما لم يستطع البشر أن يأتوا بمثله - أُنذِر في هذه الآيات من يصرّ منهم على الكفر ويستمر على الإعراض والظلم ، وبين لهم سوء العاقبة .

الإيضاح

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا) أى إن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وصدوا غيرهم عن سبيل الله بإلقاء الشبهات في قلوبهم كقولهم لو كان رسولا لأتى بكتابه دفعة واحدة من السماء كما نزلت التوراة على موسى ، وقولهم إن الله تعالى ذكر في التوراة أن شريعة موسى لا تبدل ولا تنسخ إلى يوم القيامة ، وقد ضلوا ضلالا بعيدا لأن أشد الناس ضلالا من كان ضالا ويعتقد في نفسه أنه محق ، ويتوسل بذلك الضلال إلى اكتساب المال فهو قد سار في سبيل الشيطان وبعد عن سبيل الله فلم يعد يفقه أنها هي الموصلة إلى خير العاقبة .

(إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم) أى إن الذين كفروا بما أنزل إليك وظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الطريق الموصل إلى الخير والسعادة وظلموا غيرهم بإغوائهم إياهم بزخرف قولهم وسوء سيرتهم وصددهم عن الصراط

المستقيم - ليس من سنته تعالى أن يفر لهم ذلك الكفر والظلم يوم الحساب والجزاء لأن الكفر والظلم قد أفسدا فطرتهم وأثرا في نفوسهم وأعميا قلوبهم وجعلها تستمرى قبيح الأفعال وتهوى شر الخلال والأعمال - ولا يزول هذا إلا إذا اتجهت نفوسهم إلى ما يضاد ذلك من إيمان صحيح وعمل صالح يزكي النفوس مما ران عليها ويطهرها وينشأ نشأة أخرى ، ولا سبيل إلى ذلك يوم الجزاء والحساب ومن ثم قال تعالى :

(ولا يهديهم طريقا إلا طريق جهنم) أى وليس من شأنه أن يهدى أمثالهم طريقا يوصلهم إلى الجزاء على أعمالهم إلا طريق جهنم ، فهى الطريق التى ينتهى إليها من دسى نفسه بالكفر والظلم وأوغل فى السير فيها طول عمره واستمرأ الشرور والمفاسد حتى هوت به إلى واد سحيق .

فانتظار الغفرة ودخول الجنات أمثال هؤلاء انتظار لإبطال نظام العالم ونقض لسنن الله وحكمته فى خلق الإنسان .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

(خالدين فيها أبدا) الخلود بقاء الشيء مدة طويلة على حال واحدة لا يطرأ عليه فيها تغيير ولا فناء ، والأبد الزمن الممتد ، وتأبد الشيء بقى أبدا وأبد بالمكان أبودا أقام به ولم يبرحه ، أى يدخلونها ويدوقون عذابها حال كونهم خالدين فيها أبدا لا يخرجون منها .

(وكان ذلك على الله يسيرا) أى وكان ذلك الجزاء سهلا على الله دون غيره لأنه مقتضى حكمته وسنته وليس بالعزيز على قدرته .

وفى هذا تحقير لأمرهم وبيان لأن الله لا يعابأ بهم ولا يبالي بشأنهم .

(يأبىها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) بعد أن أقام الحجة على أهل الكتاب ورد شبهاتهم واقترحهم ما اقترحوا تعنتا وعنادا - خاطب جميع الناس

وأمرهم بالإيمان وشفعه بالوعد على عمل الخير والوعيد على عمل الشر ، للإيمان إلى أن الحججة قد وضحت والحجة قد لزمت فلم تبق معذرة في الإعراض والصد عن اتباع الدعوة وقبول الحق من هذا الرسول الكريم ، وقد كان اليهود ينتظرون من الله مسيحا ونبيا بشر بهما أنبياءهم ، فقد جاء في الفصل الأول من الإنجيل يوحنا - أنهم أرسلوا بعض الكهنة والأخبار إلى يوحنا (يحيى عليه السلام) ليسألوه من هو؟ وكانت قد ظهرت عليه أمارات النبوة - فسألوه أنت المسيح؟ قال لا ، قالوا أنت النبي؟ قال لا - من هذا تعلم أن يهود العرب ونصاراهم لما سمعوا هذه الآية زمن التنزيل فهموا أن المراد به الرسول الذى بشرهم به موسى صلى الله عليه وسلم فى التوراة فى سفر تثنية الاشتراع وعيسى فى الإنجيل وغيرها من الأنبياء .

(فآمنوا خيرا لكم) أى فآمنوا يكن الإيمان خيرا لكم لأنه يزكيكم ويطهركم من الدنس والرجم ويؤهلكم للسعادة الأبدية .

(وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض) أى وإن تكفروا فإن الله غنى عن إيمانكم وقادر على جزائكم بما يقتضيه كفركم وسوء عملكم ، فإن له ما فى السموات والأرض ملكا وخالقا وكلهم عبيده ينقادون لحكمه طوعا أو كرها ، فعبادة الكره وعدم الاختيار تكون بالخضوع لقدرته وسننه فى الأكوان وهى عامة فى جميع الخلق سواء منها العاقل وغيره ، وعبادة الاختيار خاصة بالمؤمنين الأخيار والملائكة الأبرار .

(وكان الله عليا حكيا) أى وكان شأنه تعالى العلم المحيط والحكمة السكاملة فى جميع أفعاله وأحكامه فهو لا يخفى عليه أمركم فى إيمانكم وكفركم وسائر أحوالكم ، ومن حكمته أن يجازيكم على ما تجتريحون من الآثام والموبقات ، فإنه لم يخلقكم عبثا ولن يترككم سدى فطوبى لمن نهى النفس عن الهوى وآثر الآخرة على الدنيا ، وويل لمن أعرض عن ذكر ربه وأعرض عن أمره ونهيه وحالف الشيطان وحزبه .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
 إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ
 مِنْهُ فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ
 إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ
 عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ
 فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا
 وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
 وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)

شرح المفردات

الغلو: مجاوزة الحد ، وكتبته أى إنه حدث بكلمة كن من غير مادة معتادة، ألقاها
 إلى مريم : أوصليها وأبلغها إياها، وروح منه أى لأنه خالق بنفخ من روح الله
 وهو جبريل ، الاستنكاف : الامتناع عن الشيء أنفة وكبرا ، والاستكبار أن يجعل
 الإنسان نفسه كبيرة فوق ماعى عليه غرورا وإعجابا بها .

المعنى الجملى

بعد أن انتهى من محاجة اليهود وإقامة الحجة عليهم ، وهم قد غلوا فى تحقير
 عيسى وإهانتة وكفروا به - ذكر هنا محاجة النصارى خاصة ودحض شبهاتهم ،
 وهم قد غلوا فى تعظيم عيسى وتقديسه ، كما دحض شبهات اليهود فيما سلف .

الإيضاح

(يا أهل الكتاب لاتغفروا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) أى لاتتجاوزوا الحدود التى حدها الله ، فإن الزيادة فى الدين كالنقص فيه ، ولا تمتقدوا إلا القول الحق الثابت بنص دينى متواتر ، أو برهان عقلى قاطع ، وليس لكم على ما زعمتم من دعوى الاتحاد والحلول واتخاذ الصاحبة والولد شىء منها .

(إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله) إلى بنى إسرائيل ، وقد أمرهم بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ، وزهدهم فى الدنيا ، وحشهم على التقوى ، وبشرهم بمحمد خاتم النبيين ، وأرشدهم إلى الاعتدال فى كل شىء فهداهم إلى الجمع بين حقوق الأبدان وحقوق الأديان .

(وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه) وهو مكون بكلمته وأمره الذى هو « كن » من غير واسطة أب ولا نطفة ، فإنه لما أرسل إليها الروح الأمين جبريل بشرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلاماً زكياً فاستنكرت ذلك إذ هى عذراء لم تتزوج فقال لها : « كَذَلِكَ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » فكلمة (كن) هى الكلمة الدالة على التكوين بمحض القدرة عند إرادة خلق الشىء وإيجاده .

وهو أيضاً مؤيد بروح منه كما قال تعالى : « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » وكما قال فى صفات المؤمنين « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ » .
 وآية الله فى خلق عيسى بكلمته وجعله بشراً سوياً بما نفخ فيه من روحه كآيته فى خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه فخلقهما كان بغير السنة العامة فى خلق الناس من ذكر وأنى « إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » :

وزعم بعض النصارى أن كلمة (منه) تدل على أن عيسى جزء من الله بمعنى أنه ابنه ، فقد نقل بعض المفسرين أن طيبيا نصرانيا للرشيدي ناظر على بن حسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له : إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا الآية ، فقرأ له الواقدي قوله تعالى : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » فإثن ضحك ما تقول لزم أن تكون جميع هذه الأشياء جزءاً منه تبارك وتعالى - فأختم النصراني وأسلم ففرح بذلك الرشيدي ووصل الواقدي بصلة عظيمة .

وقد جاء في إنجيل متى (أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا ، لما كانت أمه مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس) . (وفي إنجيل لوقا تفصيل لظهور الملك جبريل لها وتبشيرها إياها بولد ومحاورتهما في ذلك ، ومنها أنها سألته عن كيفية ذلك فقال لها (الروح القدس يحل عليك) .

وفي هذا الفصل أن اليصابات أم يحيى امتلأت من الروح القدس وبذلك حملت بيحيى وكانت عاقرا وأن زكريا أباه امتلأ من الروح القدس .

ومن هذا تعلم أن روح القدس عندهم وعندنا واحد وهو ملك من ملائكة الله الذين لا يحصى عددهم وأن عيسى خلق بواسطته وكذلك يحيى وكان خلقه من وجه آخر إذ كان أبوه شيخا كبيرا وأمه عاقرا ولكن الواسطة والسبب واحد وهو الملك للمسمى بروح القدس أيدهم الله به رجالا ونساء فلا يستفاد إذا من قوله : وروح منه ، أنه جزء من الله ، تعالى الله عن التركيب والتجزؤ والحلول والاتحاد بخلقه .

(فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة) أي فآمنوا بالله إيمانا يليق به ، وهو أنه واحد أحد تنزه عن صفات الحوادث ، وأن كل مافي الكون مخلوق له وهو الخالق له ، وأن الأرض في مجموع ملكه أقل من حبة رمل بالنسبة إلى اليايس منها ، ومن نقطة ماء بالنسبة إلى بحارها وأنهارها ، وآمنوا برسله كلهم إيمانا يليق بشأنهم وهو

أنهم عبيد له خصمهم بضروب من التكريم والتعظيم وألهمهم بضرب من العلم والهداية بالوحي ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه ويشكروونه ، ولا تقبلوا : الآلهة ثلاثة الأب والابن وروح القدس ، أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر ، وكل منها إله كامل ، ومجموعها إله واحد .

فإن في هذا تركا للتوحيد الذي هو ملة إبراهيم وسائر الأنبياء وانباعا لعقيدة الوثنيين ، والجمع بين التثليث والتوحيد تناقض تحيله العقول ولا يقبله أولو الألباب . . (انتهوا خيرا لكم) أى انتهوا عنه وقولوا قولاً آخر خيراً لكم منه ، وهو قول جميع النبيين والمرسلين الذين جاءوا بتوحيد الله وتنزيهه ، فإن المسيح الذي سميتوه إلهاً يقول كما في إنجيل يوحنا (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) .

(إنما الله إله واحد) بالذات منزّه عن التعدد ، فليس له أجزاء ولا أقانيم ولا هو مركب ولا متحد بشيء من المخلوقات .

(سبحانه أن يكون له ولد) أى تقدس عن أن يكون له ولد كما قلتم في المسيح إنه ابنه وإنه عينه فإنه تبارك وتعالى ليس له مماثل فيكون له منه زوج يتزوجها فتلد له ولداً .

والتعبير بالولد دون الابن الذي يعبرون به في كلامهم ، لبيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقي الذي يفهم من هذا اللفظ فلا بد أن يكون ولداً أى مولوداً من تلقح أبيه لأمه وهذا محال على الله تعالى ، وإن أرادوا الابن المجازى لا الحقيقي فلا خصوصية لعيسى في ذلك لأنه قد أطلق في كتب العهد العتيق والعهد الجديد على إسرائيل وداود وغيرهما من الأخيار .

(له مافى السموات ومافى الأرض) أى إنه ليس له ولد يصح أن يسمى ابناً له حقيقة بل له كل مافى السموات ومافى الأرض خلقاً وملكاً والمسيح من جملتها كما قال تعالى : « **إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** » .

ولا فرق في هذا بين الملائكة والنبیین ، ولا بين من خلقه ابتداء من غير أب ولا أم كالملائكة وآدم ، ومن خلقه من أصل واحد كحواء وعيسى ومن خلق من الزوجين الذكر والأنثى ، فكل هؤلاء عبيده يحتاجون إلى فضله وكرمه وجوده وهو يتصرف فيهم كما يشاء .

(وكفى بالله وكيلا) أى كفى به حافظا ووكيلا إذا وكلوا أمورهم إليه ، فهو غنى عن الولد فإن الولد إنما يحتاج إليه أباه ليعينه في حياته ، ويقوم مقامه بعد وفاته ، والله تعالى منزّه عن كل ذلك .

هذا ، وعميقة التلث وثنية نقلها الوثنيون المنتصرون إلى النصرانية واعتمدوا في ذلك على بعض ألفاظ في الكتب اليهودية جعلوها تكاوة على ما أرادوا وحرّفوا فيها وأولوا لتفيد ما ادعوا ، وبذا هدموا آيات التوحيد ، وقد فصل ذلك علماء أوروبا وأتوا عليه بشواهد كثيرة من الآثار القديمة والتاريخ ، فقال البحّارة موريس في كتابه (الآثار الهندية القديمة) كان عند أكثر الأمم البائدة تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي أو الثالوثي .

وقال مستر فابر في كتابه (أصل الوثنية) كما نجد عند الهنود ثالوثا مؤلفا من برهما وفشنو وسيفا ، نجد عند البوذيين ثالوثا فإنهم يقولون إن (بوذه) إله ثلاثة أقاتيم كما تقول الهنود .

وقال مستردوان في كتابه (خرافات التوراة) وكان قسيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس في تعليمهم المبتدئين بقولهم إن الأول خلق الثاني وهما خلقا الثالث وبذلك تم الثالوث المقدس ، وسأل تولىسو ملك مصر الكاهن تيشوكى - هل كان قبله أحد أعظم منه ؟ وهل يكون بعده أحد أعظم منه ؟ فأجابه الكاهن : نعم يوجد من هو أعظم وهو الله قبل كل شيء ثم الكلمة ومعهما روح القدس ، ولهذا الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية ، فاذهب يا فاني يا صاحب الحياة القصيرة ، ثم قال المؤلف لا ريب أن تسميه الأتقوم

الثانى من التالوث المقدس (كلمة) هو من أصل وثنى مصرى دخل فى غيره من الديانات المسيحية و (أبولو) المدفون فى (دهلى) يدعى الكلمة، وفى علم اللاهوت الإسكندرى الذى كان يعمله (بلاتو) قبل المسيح بسنين عدة (الكلمة هى الإله الثانى) ويدعى أيضا ابن الله البكر، وقال هيجين فى كتابه (الانكلوسكسون) كان الفرس يسمون (متروسا) الكلمة والوسيط ومخلص الفرس، وقال دوان : كان الفرس يعبدون إلهها مثلث الأقانيم مثل الهنود ويسمون الأقانيم (أوزمرد . مترات . أهرمن) . فأوزمرد الخلاق ومترات ابن الله المخلص والوسيط . وأهرمن الملك ، والمشهور عن مجوس الفرس التثنية دون التثليث فكانوا يقولون بإله هو مصدر النور والخير وإله هو مصدر الظلمة والشر .

وقال صاحب كتاب (ترقى الأفكار الدينية) إن اليونانيين كانوا يقولون إن الإله مثلث الأقانيم وكان قساوستهم إذا شرعوا فى تقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء للمقدس ثلاث مرات (إشارة إلى التالوث) ويرشون المجتمعين حول المذبح ثلاث مرات ، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، ويعتقدون أن الحكماء قالوا إنه يجب أن تكون جميع الأشياء المقدسة مثلثة ولهم اعتناء بهذا العدد فى جميع شعائرهم الدينية .

وقد اقتبست الكنيسة بعد دخول نصرانية قسطنطين فيهم ، هذه الشعائر كلها ونسخت بها شريعة المسيح التى هى التوراة ، وظلموا المسيح بنسبتها إليه .
والخلاصة — إن الديانة النصرانية بنيت على أساس التوحيد الخالص فحولها الكهنة إلى ديانة وثنية تقول بتثليث غير معقول أخذوه من تثليث اليونان والرومان المقتبس من تثليث المصريين والبراهمة اقتباسا مشوها ، ونسخوا شريعة سماوية برمتها واستبدلوا بها بدعا وتقاليد غريبة عنها ، فقد كانت ديانة زهد وتواضع فحولوها ديانة طمع وجشع وكبرياء وترف وأثرة واستعباد للبشر ، ديانة نسبوها إلى المسيح

وليس عندهم نص فيها يدل على التثليث ، بل عندهم نصوص من كلامه تدل على التوحيد وإبطال التثليث ، ولو لم يكن عندهم من النصوص في هذه العقيدة إلا مارواه يوحنا في إنجيله لكفى من قوله عليه السلام (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) فهذا نص واضح في أنه هو الإله وحده وأنه هو رسوله .

وقال مرقس في الفصل الثاني عشر من إنجيله : إن أحد الكتبة سأل يسوع عن أول الوصايا فأجاب ، أول الوصايا : اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد الخ ، فقال له الكاتب (جيدا) يا معلم بالحق قلت لأنه واحد وليس آخر سواء ، فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له (لست بعيدا عن ملكوت السموات) ومن هذا النص يعلم أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل (١) .

(لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) أى لن يأنف المسيح ولن يترفع عن أن يكون عبدا لله لعلمه بعظمة الله وما يجب له من العبودية والشكر ، ولا الملائكة المقربون يستنكف أحد منهم أن يكون عبدا له .

ومن هذه الآية يفهم أن الملائكة أعظم من المسيح خلقا وأفعالا ، ومنهم روح القدس الذي بنفخة منه خلق المسيح ، ومن ثم استدل بها كثير من العلماء على تفضيل الملائكة المقربين على الأنبياء . إذ السياق في رد غلوّ النصارى في المسيح بالتخاذ لها ورفعها عن مقام العبودية فالرد عليهم يقتضى الترقى من الرفيع إلى الأرفع كما تقول إن فلانا التقى لا يستنكف من تقبيل يد الوزير ولا الأمير ، فإذا بدأت بذكر الأمير لم يعد لذكر الوزير فائدة ، بل يكون لغوا لأنه يندمج في الأول بالطريق الأولى .

وقال آخرون إن الآية لا تدل على ذلك لأنها في معرض تفضيل هؤلاء الملائكة في عظم الخلق والقدرة على الأعمال العظيمة وهو المناسب للرد على من استكبروا خلق

(١) كل ما تقدم في هذا الفصل مأخوذ من تفسير المنار .

المسيح من غير أب وصدور بعض الآيات عنه فجملوه لها ، مع أن الملائكة خلقوا من غير أب ولا أم ويعلمون ما هو أعظم من آيات المسيح فهم بهذا أفضل منه وأعظم . وأيا كان فالفاضل في هذا من الرجم بالغيب ، إذ لا يعلم إلا بنص مع أنه ليس له فائدة في إيمان ولا عمل .

(ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) أى ومن يترفع عن عبادته تعالى أنفة وكبرا فيرى أنه لا يليق به ذلك فسيجزيه أشد الجزاء ، إذ يحشر الناس جميعا للجزاء المستنكفين منهم والمستكبرين مع غيرهم في صعيد واحد كما ورد في الحديث ثم يحاسبهم ويجزئهم على أعمالهم .

(فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفىهم أجورهم ويزيدهم من فضله) أى فهو لأ الذين عملوا الصالحات سيعطيهم أجورهم وافية كاملة على إيمانهم وعملهم الصالح على حسب سنة الله في ترتيب الجزاء على مقدار تأثير الإيمان والعمل الصالح في النفس وتركيتها وطهارتها من أدران الشرور والآثام .

(وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيمذهبهم عذابا ألينا) أى فهو لأ يعذبون عذابا مؤلما يستحقونه على حسب سنن الله أيضا ، لكن لا يزيدهم على ما يستحقون شيئا ، لأن رحمته سبقت غضبه ، فهو يجازى المحسن على إحسانه بالعدل والفضل ويجازى المسيء على إساءته بالعدل .

(ولا يجدون لهم من دون الله وائيا ولا نصيرا) أى لا يجدون لهم من غير الله تعالى وائيا إلى أمورهم ويدبر مصالحهم ، ولا نصيرا ينصرهم من بأسه ويرفع عنهم العذاب إذ لا عاصم اليوم من أمر الله (يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

يَأْيُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا (١٧٥)

المعنى الجملى

بعد أن حاج أهل الزينغ والضلال جميعا ، فحاج النصارى فى الآية السابقة ، وحاج اليهود فى الآية التى قبلها ، وحاج المنافقين والمشركين أثناء السورة وفى سور كثيرة غيرها وأقام الحجة عليهم جميعاً وظهرت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ظهور الشمس فى رابعة النهار - نادى الناس كافة ودعاهم إلى اتباع برهانه والاهتداء بنوره .

الإيضاح

(يَأْيُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ) أى قد جاءكم من قبل ربكم برهان جلى يبين لكم حقيقة الإيمان بالله وجميع ما أتم فى حاجة إليه من أمر دينكم مؤيد بالدلائل والبيّنات ، ألا وهو النبى الأمى الذى هو برهان على حقيقة ما جاء به بسيرته العملية ودعوته التشريعية ، فإن أمياً لم يتعلم فى مدرسة ولم يعن فى طفولته بما كان يسمى عند قومه علماً كالشعر والنسب وأيام العرب بل ترك ولدان المشركين وشأنهم ولم يحضر سُمّار قومه ولا معاهد لهوهم ولم يحظ من التربية المنزلية والتأديب الاجتماعى فى أول نشأته ما يؤهله للمنصب الذى تصدى له فى كهولته ، وهو تربية الأم تربية دينية اجتماعية سياسية حربية ، وهو مع هذا قد قام به على أتم وجه وأكمل طريق - لهو برهان على عناية الله به وتأيينه إياه بوجيه وهديه .

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) أى وأنزلنا إليكم بما أوحينا إليه كتاباً هو كالنور فى الهداية للناس مبيناً لكل ما أنزل لبيانه من توحيد الله وربوبيته وهو المقصد

الأعلى الذى بعث به جميع الرسل وكان كل منهم يدعو أمته إليه ويستجيب له الناس بقدر استعدادهم لفهم حقيقته ثم لا يلبثون أن يشوهوه بالشرك وضروب الوثنية التى تدنس النفوس وتهبط بها من أوج العزة والكرامة إلى المهانة والذلة بالخضوع لبعض المخلوقات من جنسهم أو من أجناس أخرى .

ولما تعاملت الوثنية فى جميع الأديان المعروفة وأفسدتها على أهلها أنزل الله لهداية البشر هذا النور المبين وهو القرآن ، فبين لمن يفهم لغته حقيقة التوحيد بالدلائل والبراهين الكونية والعقلية مع ضرب الأمثال وذكر شىء من القصص لكشف ما ران على هذه العقيدة من شبهات المضلين وأوهام الضالين التى مزجتها بالشرك . هذا البيان الذى جاء به القرآن لتقرير التوحيد واجتثاث جذور الوثنية لم يكن معهودا مثله من الحكماء ولا من الأنبياء ، فمن ثم وجب أن يكون من رب العالمين « وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » .

والخلاصة — أن محمدا النبى الأمى صلى الله عليه وسلم كان برهانا على حقية دينه وكتابه القرآن أنزل من العلم الإلهى ولم يكن لعلمه الكسبى أن يأتى بمثله، وأنزل نورا مبينا لجميع الناس ما هم فى حاجة إليه فى معاشهم ومعادهم ليتدبروا آياته ويسعدوا به فى حياتهم الدنيا وينالوا به الخير فى العقبى .

(فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل) الاعتصام التمسك بما يعصم ويحفظ أى فأما الذين يعتصمون بهذا القرآن فيدخلهم الله فى رحمة خاصة منه لا يدخل فيها سواهم ، وفضل خاص لا يفضل به على غيرهم ، ولكنه يختص من يشاء بما شاء من أنواعهما ، وقال ابن عباس : الرحمة الخنة ، والفضل ما يتفضل به عليهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(ويهديهم إليه صراطا مستقيما) أى ويهديهم طريقا قويا وهداية خاصة تبلغهم السعادة فى الدنيا بالعزة والكرامة وفى الآخرة بالجنة والرضوان ، وهذا

الصراف المستقيم لا يهتدي إليه إلا الاعتصام بالقرآن الكريم واتباع سنة سيد المرسلين، والمراد أنه يوفقهم ويثبتهم على تلك الهداية إلى الصراط المستقيم، وسكت عن القسم الآخر المقابل لهؤلاء المؤمنين المعتصمين للايدان بأنه بعد ظهور البرهان لا ينبغي أن يوجد، وإن وجد لا يؤبه له ولا يهتم بشأنه .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ، إِنْ أَرَأَوْهُمُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ
وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ،
فَإِنْ كَانَتْ أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا
وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا، وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم في أول السورة في أحكام الأموال ختم آخرها بذلك ليكون الآخر
مشا كلاً للأول، والوسط مشتمل على المناظرة مع فرق المخالفين للدين :
روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله قال : « دخل على
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لأعقل فتوضأ ثم صب على فعمقت، فقلت
إنه لا يرثني إلا كلاله فكيف الميراث؟ فنزلت آية الميراث (يريد هذه الآية) » .
وروى ابن عبد الرزاق وابن جرير عن ابن سيرين قال « نزلت (يستفتونك قل الله
يفتيكم في الكلاله) والنبي صلى الله عليه وسلم في مسيرله وإلى جنبه حذيفة بن
اليمان قبلها النبي صلى الله عليه وسلم حذيفة وبلغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير
خلفه، فلما استخلف عمر سأل عنها حذيفة ورجا أن يكون عنده تفسيرها، فقال له
بحذيفة: والله إنك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملنى على أن أحدثك ما لم أحدثك

يومئذ . فقال عمر لم أرد هذا رحمتك الله « قال الخطابي أنزل الله في الكلاله آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي في أول سورة النساء وفيها إجمال وإبهام لا يكاد يتبين المعنى من ظاهرها ، ثم أنزل الآية الأخرى في الصيف وهي التي في آخرها وفيها من زيادة البيان ما ليس في آية الشتاء ، فأحال السائل عليها ليتبين المراد بالكلالة المذكورة فيها اه .

الإيضاح

(يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله) الكلاله : ما عدا الوالد والولد من القرابة وقيل الإخوة من الأم ، قال في لسان العرب - وهو المستعمل - والمعنى يطلبون منك أيها النبي الفتيا فيمن يورث كلاله كجابر بن عبد الله الذي ليس له والد ولا ولد وله أخوات من العصبه لم يفرض لهم شيء في التركة من قبل ، وإنما فرض للإخوة من الأم السدس للواحد منهم والثالث لما زاد على الواحد وهم شركاء فيه مهما كثروا لأنه ميراث أهمهم ليس لها سواء - فقل لهم جوابا عما سألتهم عنه .

(إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك) هلك مات - أي إن هلك امرؤ غير ذي ولد والحال أن له أختا من أبويه معا أو من أبيه فقط فلها نصف ما ترك .

(وهو يرثها إن لم يكن لها ولد) أي والأخ يرث أخته إذا ماتت إن لم يكن لها ولد ذكر ولا أنثى ولا والد يحجبه عن إرثها ، وإنما أطلق الإرث ولم يبين النصيب لأن الأخ ليس صاحب فرض معين بحيث لا يزيد ولا ينقص بل هو عصبه يحوز كل التركة عند عدم وجود أحد من أصحاب القروض ، وعند وجود أحد منهم يرث هو معه كلاله جميع ما بقي .

(فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) فإن كان من يرث بالأخوة أختين فلهما الثلثان مما ترك أخوها كلاله . ، وكذا إن كن أكثر من اثنتين كأخوات جابر

فقد كن سبعا أو تسعا والباقي لمن يوجد من العصابة إن لم يكن هناك أحد من أصحاب الفروض كالزوجة وإلا أخذ كل ذى فرض فرضه أولا .

(وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) أى وإن كان من يرثون بالأخوة كلاله ذكورا وإناثا فللذكر مثل حظ الأنثيين كما هي القاعدة فى كل صنف اجتمع منه أفراد فى درجة واحدة إلا أولاد الأم فإنهم شركاء فى سدس أمهم لخلوهم محلها ولولا ذلك لم يرثوا إذ هم ليسوا من عصابة الميت .

(يبين الله لكم أن تضلوا) أى يبين الله لكم أمور دينكم التى من أولها تفصيل هذه الأحكام كراهة أن تضلوا أى لتتقوا بمعرفتها الضلال فى قسمة التركات وغيرها .

(والله بكل شىء عليم) فهو لم يشرع لكم من الأحكام إلا ما علم أن فيه الخير لكم وصلاح أنفسكم وذلك شأنه فى جميع أفعاله وأحكامه ، فكلها موافقة للحكمة دالة على واسع العلم وعظيم الرحمة .